www.shabcenter.ly
info@shabcenter.ly

برعاية المدار الجديد

التقنية والقيم الإنسانية

د. نجاح بن زايد

يشهد العالم اليوم تحوّلًا حضاريًا غير مسبوق تقوده تقنيات الذكاء الاصطناعي التي لم تعد مجرد أدوات لأتمتة المهام أو تسريع الخدمات، بل أصبحت منظومات فاعلة في تشكيل الوعي وتوجيه السلوك وإعادة تعريف القيم والمفاهيم الأخلاقية والاجتماعية، لم يعد الذكاء الاصطناعي حدثًا تقنيًا فحسب، بل أصبح قوة ثقافية ومعرفية تُعيد صياغة علاقة الإنسان بالعالم وبذاته، وفي هذا الإطار تبدو ليبيا نموذجًا مهمًا لدراسة هذه التحولات؛ لما تعانيه من هشاشة اجتماعية وسياسية تقابلها بنية رقمية متسارعة، جعلت القيم والهوية أمام اختبار عسير.

لقد دخلت التقنية عصر الإنسان من أوسع أبوابه؛ فبعد أن كانت الأداة في يد الإنسان، أصبح الإنسان ذاته أداة داخل منظومة أكبر منه، أصبح يعيش في فضاء تتقاطع فيه الخوارزميات والإعلانات والمحتوى الموجَّه، وكلها تعمل على إعادة هندسة إدراكه، هنا لم تعد التقنية مجرد وسيط بين الإنسان والعالم، بل أصبحت العالم ذاته الذي يرى من خلاله الإنسان نفسه ويرى الآخرين.

سابقًا كانت القيم الاجتماعية في ليبيا كما في المجتمعات العربية عمومًا تُبنى عبر تفاعل الأسرة والتعليم والمجتمع المدني والدين، في سياق عام يراكم الخبرات الثقافية والمعنوية، كما كانت هذه المنظومات تنقل معاني الكرامة والتضامن والخصوصية والحكمة من جيل إلى آخر من خلال تجربة إنسانية حية ومباشرة، غير أن هذا البناء التقليدي بدأ يتفكك تدريجيًا مع صعود الخوارزميات التي بدأت تتسلل إلى تفاصيل حياتنا اليومية عبر وسائل التواصل والمنصات الرقمية، فتؤثر فينا وفي تشكيل المحتوى، وترتيب الأولويات، وصياغة الذوق الجمعي.

فهذه الخوارزميات والبرامج الحاسوبية الذكية تتعلم من البيانات وتقرر بناءً على أنماطها، فهي أشبه ما يكون بمصفاة إدراكية تتحكم فيما نراه ونفكر فيه ونؤمن به، كما أنها لا تعكس الواقع كما هو، بل تعيد إنتاجه وفق منطق الربح والسرعة والتفاعل اللحظي؛ مما جعل القيم الاجتماعية تتشكل على أسس تقنية صرفة وليست إنسانية، ولهذا، لم يعد الإنسان

متلقيًا محايدًا للمعرفة، بل أصبح جزءًا من منظومة تبرمج سلوكه ورؤيته للعالم في ضوء معادلات خفية، لقد تحوّل بفعل التقنية من كائن معنوي تحكمه القيم إلى مستهلك بيانات تحددها خوارزمية.

الذكاء الاصطناعي ليس أداة محايدة، ولذلك فهو لا يغيّر أدواتنا فقط بل يعيد تشكيل وعينا، ولعل المتتبع لمسار التقنية سيلاحظ هذا الانتقال التدريجي من قيم التضامن والخصوصية إلى منطق البيانات والسرعة، ويبدو ذلك واضحًا في المجتمعات الحديثة التي تظهر عليها علامات تفكك الروابط الاجتماعية، في ليبيا على سبيل المثال تتفاقم هذه الظاهرة بسبب هشاشة البنية الاجتماعية وتداخل الأزمات السياسية والاقتصادية كما أوضحنا.

ليبيا التي ما تزال تبحث عن توازن اجتماعي بعد فترة طويلة من الاضطرابات، تواجه اليوم شكلًا جديدًا من أشكال التحدي لا يأتي من الخارج بالسلاح، بل من الداخل عبر الخوارزميات والمحتوى الموجّه الذي يعيد تشكيل وعي الناس، ويؤثر في تصوراتهم عن الهوية والدين والسياسة والمستقبل. وهنا تكمن خطورة التحول الرقمي غير الواعي، أي الانتقال إلى العالم الرقمي دون امتلاك أدوات نقدية تحصّن المجتمع من تلاعب التقنية بالإدراك والثقافة.

وبحسب تقارير صادرة عن شركة ميتا عام 1202، أزالت الشركة شبكة مكوّنة من 14 حسابًا على فيسبوك و331 صفحة و3 مجموعات و41 حسابًا على انستغرام كانت تُدار من الخارج، واستُخدمت في عمليات تضليل واستقطاب سياسي تستهدف المجتمع الليبي. وهو مثال حي على كيفية استغلال الفضاء الرقمي في تغذية الانقسامات الداخلية وزعزعة استقرار المجتمع، وأيضًا نموذج لما يمكننا تسميته بالهندسة الخفية للوعي الجمعي.

في المقابل وعلى صعيد اجتماعي موازٍ أظهر تقرير المنظمة الليبية للسلام والتنمية (2202) من خلال مبادرة (لا للابتزاز الإلكتروني في ليبيا) أن نسبة كبيرة من النساء المتعرضات للابتزاز لا يُقدمن على التبليغ، إذ يُقدَّر أن 06% منهن يلتزمن الصمت خوفًا من الوصمة الاجتماعية، هذا الصمت لا يعكس

فقـط ضعف التشـريعات، بـل يؤكد لنا وجـود أزمة قيمية عميقـة في مفهوم الخصوصيـة والكرامة داخـل الفضاء الرقمي، حيث تتحـول القيم الأخلاقية من أدوات حماية إلـى أدوات ضغط اجتماعي.

مـن المؤكـد أن هـذا الأمـر لا يقتصر علـى ليبيا فقـط، فالعالم العربي بأسـره يعيـش فـي مفتـرق طرق أخلاقـي، حيـث يمكننا وبـكل سـهولة ملاحظة هذا التداخـل الرهيـب للتقنيـة مع البنيـة الثقافية التقليدية وبشـكل غيـر متوازن. والمفارقـة كيف تتيح المنصـات وتطبيقات التواصـل الاجتماعي للأفراد فرصًا غيـر مسـبوقة للتعبيـر والمعرفـة، وفـي نفـس الوقت تفـكك منظومـة القيم الجماعيـة والمرجعيـات الثقافيـة. نظـرة واحـدة فاحصة للمجتمعـات الحديثة تبيـن لنا تحـوّل الرأي العام إلى مجرد منتج رقمي تُعيـد صياغته الخوارزميات وفـق منطـق الإعجـاب والمشـاهدة، والمتابعة المحمومـة لتطبيقـات التقنية وبعيـدًا عـن منطق الحقيقـة والعقل.

هنـا يُطرح سـؤال فلسـفي مهـم: من يصنع الإنسـان في هـذا العصر؟ وهل مـا زالـت الثقافة الإنسـانية والضمير الجمعـي والتجربة الذاتية هـي التي تُنتج الهويـة، أم أن الخوارزميـات التـي تُغـذي الوعـي بالمعلومـة والرمـز والصـورة هـي الفاعـل الخفـي في إعادة تشـكيل الـذات البشـرية؟ هذا السـؤال يدفعنا إلـى ضرورة تأسـيس الفلسـفة الرقمية، وأعنـي بها منظومة فكريـة وأخلاقية تسـعى إلـى إعـادة التوازن بين الإنسـان وأدواته التقنية، وبين القيم الإنسـانية والمعاييـر الخوارزمية.

تـزداد الحاجة إلى هذه الفلسـفة بالنظر إلى البعـد الأمني لهذا التحول، خاصة وأن الأمـن القومـي فـي ليبيـا، كمـا فـي غيرهـا مـن الدول، لـم يعـد مقصورًا على حماية الحدود أو السـيطرة العسـكرية، بل أصبـح يتصل بالوعي الجمعي والقـدرة علـى حماية المجال الإدراكي من الاختـراق. فنحن اليوم لا نواجه خطرًا عسـكريًا تقليديًـا فحسـب، بـل نواجه مـا يُمكننا تسـميته بـالاحتلال الإدراكي غيـر المرئـي، حيـث يتـم توجيه سـلوكيات الناس مـن الخارج عبـر خوارزميات خفيـة تُعيد تشـكيل الرأي العام وتسـعى لخدمـة صالح القوى غيـر المرئية.

في هذا الصدد تؤكد مجلة العلاقات الدولية (2202) في أحد تقاريرها أن غياب ثقافة وطنية لحماية الفضاء الرقمي قد يؤدي إلى فقدان السيادة الرقمية، وهو ما يهدد الهوية الوطنية الليبية ذاتها. فنحن اليوم أمام شكل جديد من السيطرة لا يعتمد على الجيوش، بل على تقنية رقمية تُعيد برمجة العقول وتشكيل القيم والمواقف والمشاعر الجماعية.

لمواجهة هذه التحديات، لا بد من وضع استراتيجية محكمة تراعي التطور الأسي الرهيب للتقنية، وتشمل ثلاثة جوانب مهمة: الجانب الثقافي، والجانب التشريعي، والجانب التربوي، وذلك على النحو التالي:

أولًا: إدماج القيم الرقمية والأخلاق التقنية ضمن المناهج التعليمية والإعلام الوطني، لتعزيز التفكير النقدي الرقمي وفهم آليات الخداع التقني والمحتوى الموجَّه، فالتربية الرقمية هي خط الدفاع الأول عن الوعي الجمعي.

ثانيًا: سنّ تشريعات واضحة تضمن السيادة الرقمية وحماية البيانات الشخصية، عبر إنشاء هيئة وطنية مستقلة تُشرف على الفضاء الرقمي وتراقب نشاط المنصات العالمية داخليًا، وتضع سياسات لحماية المحتوى الوطني من الاختراق والعبث.

ثالثًا: تمكين المواطن الرقمي عبر برامج توعية وتدريب مستمرة تُنمّي قدرته على التحقق من المصادر والتعامل الآمن مع الفضاء الافتراضي، باعتباره شريكًا في إنتاج الوعي الجمعي.

إن التحدي الحقيقي لا يكمن في التقنية ذاتها، بل في الإنسان الذي يتعامل معها دون وعي كافٍ بحدودها وأخطارها، فالمجتمعات التي لا تمتلك رؤية قيمية وأخلاقية تجاه التقنية ستبقى رهينة لها، أما تلك التي تدرك طبيعتها وتُخضعها لمنظومة أخلاقية إنسانية فهي التي تستطيع الحفاظ على سيادتها المعرفية والروحية.

مـن هـذا المنظـور لا يمكننا اعتبـار الـذكاء الاصطناعي مجرد اختـراع، بل قوة حضارية تُعيد رسـم حدود الإدراك الإنسـاني، هذه القوة تطرح سـؤالاً فلسـفيًا مُلحاً:

هـل مـازال الإنسـان يمتلـك الوعـي النقـدي المسـتقل، أم أنـه أصبـح نتـاج خوارزميـات تُعيـد برمجتـه فـي صمت؟ ربمـا يكون هذا السـؤال هـو التحدي الفلسـفي الأكبر الذي يواجه البشـرية في عصر الذكاء الاصطناعي، ويسـتدعي مـن المجتمـع العربـي والليبـي على وجه الخصـوص التفكير في ضـرورة خلق تـوازن جديد بيـن التقنيـة والقيم الإنسـانية النبيلة.